جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بني ملال

مقرر دراسي لمادة:

" الاستشراق "

الفصل الخامس شعبة الدراسات الإسلامية

إعداد: أ.د محمد الناصري
أستاذ الفكر الإسلامي

سنحاول في هذه الوحدة الموسومة ب: "الاستشراق في الدراسات الإسلامية"، الإجابة عن مجموعة من الأسئلة من قبيل:

-ما المقصود بالاستشراق؟

-وهل الاستشراق واحد أم متعدد؟ وما هي أهم مدارس الاستشراق وبماذا اشتهرت كل مدرسة على حدة أهدافا ووسائل؟.

– ما موقف الفكر الإسلامي من الاستشراق أهو موقف واحد أم مواقف متعددة؟ ما هي أهم ملاحظات النقد العربي حول الاستشراق؟

– كيف السبيل إلى علم استغراب إسلامي؟ وهل لدينا القدرة على دراسة الغرب بالكفية التي درس بها الشرق؟.

إن محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة تقتضي مناقشتها من خلال المحاور الآتية:

أولا: في تعريف الاستشراق

ثانيا: في مدارس الاستشراق

ثالثا: ملاحظات حول النقد العربي للاستشراق

رابعا: نحو علم استغراب إسلامي.

يرجى للتوسع في مناقشة المحاور أعلاه الرجوع إلى المصادر والمراجع الآتية:

- الاستشراق في أزمة، أنور عبد المالك
- الاستشراق، ادوارد سعيد
- تغطية الإسلام، إدوارد سعيد
- الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، هاشم صالح

- أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر، نديم نجدي
- الاستشراق في أفق انسداده، بنسالم حميش
- أساطير الغرب عن الشرق: لفق تسد، رنا قباني
- مقدمات الاستتباع، الشرق موجود بغيره لا بذاته، منصور مرشو غريغوار
- الاستشراق أهدافه ووسائله، محمد فتح الله
- قصور الاستشراق، وائل حلاق
- نحن والغرب، عبد الجبار الرفاعي
- الاستشراق الألماني، رضوان السيد
- مناهج المستشرقين، سعدون محمود الساموك
- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، قاسم السامرائي
- إنتاج المستشرقين، مالك بن نبي
- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، أحمد الشيخ
- سيكولوجية الاستشراق، هشام جعيط
- مجلة دراسات استشراقية الأعداد 1-2-3...
- مجلة الاجتهاد العدد 13
- مجلة الاستغراب الأعداد 1-2-3...

وسنعمل على دعم هذه المصادر والمراجع بالعديد من المقالات التي تناقش المحاور أعلاه، وذلك بوضعها على موقع الكلية، والطلبة مطالبون بقراءتها ومناقشة الأفكار الواردة فيها على ضوء المعارف التي تلقوها من خلال هذا المقرر المختصر.

المحور الأول: في تعريف الاستشراق.

لقد استعمل مصطلح «Orientalist» للمرة الأولى في مستهل عام 1766م، وطبقاً لبعض الباحثين تعود بداية استعمال هذه المفردة في انجلترا إلى العام 1779م أو 1780م. ومن ثم انتقل هذا المصطلح إلى اللغة الفرنسية عام 1799م، وظهر عام 1838م في معجم الاكاديمية الفرنسية. ودخل إلى معجم اكسفورد عام 1812م.

والاستشراق كلمة حديثة في اللغة العربية بحيث أن أول ما دخلت في المصطلحات العربية كان ذلك في النصف الثاني من القرن 19 ولم توردها المعاجم العربية إلا في نهاية العقد السادس من القرن 20 وكان ذلك على يد صاحب كتاب " معجم اللغة" أحمد رضا، وبالضبط سنة 1959، وقد عرف الاستشراق بقوله: " طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم".

يطلق لفظ المستشرق في الغالب على الشخص إذا كان يحمل هوية غربية أوربية أو أمريكية، ولكن حيث خاض عدد من الدارسين في الإسلام من المنتمين إلى أقطار غير مسلمة مثل: الصين والهند واليابان على غرار المستشرقين من الغربيين، إذ عمدوا إلى البحث والتحقيق بشأن الإسلام والقرآن والمسلمين وخصائص البلدان الإسلامية، فكانت جهودهم تحمل الطابع الملحوظ في الجهود الغربية، وكانت آثارهم العلمية قد خضعت لنفس ملاكات نقدها من قبل علماء المسلمين، فلم يكن لهويتهم أو رقعتهم الجغرافية أيّ دور في تمييزهم من غيرهم؛ لذلك تمّ إلغاء خصوصيّة «الانتماء الغربى» للمستشرق، ليحل محلها عدم الانتماء إلى الإسلام، ومن هنا أخذ بعض المؤلّفين المسلمين يطلق كلمة المستشرق على: «كل دارس للإسلام من غير المسلمين سواء أكان غربياً أم شرقياً

وفي تعريفه للاستشراق يقول: "برنارد لويس": "كانت كلمة الاستشراق في الماضي مستخدمة بمعنيين اثنين المعنى الأول: كان يدل على مدرسة في الفن، على مجموعة من الفنانين ترجع معظم أصولهم إلى

أوروبا الغربية كانوا عبارة عن رحالة إلى الشرق، وأما المعنى الثاني: فهو الأكثر شيوعا ولا علاقة له بالأول، إنه يعني اختصاصا علميا، وهذه الكلمة مع العلم الذي تدل عليه تعود إلى عصر التوسع الكبير للعلم في أوروبا الغربية منذ عصر النهضة. في البداية كان هؤلاء العلماء الأوائل فقهاء لغة يهتمون بالتحصيل والدراسة وطبع النصوص وكانت تلك المهمة الأولى والأساسية التي ينبغي الشروع بها من أجل أن يصبح ممكنا من الانخراط في الدراسة الجادة للمواد الأخرى كالفلسفة والدين والأدب والتاريخ، ولم يكن مصطلح المستشرق غامضا وغير دقيق إلى الحد الذي يبدو عليه اليوم".

الملاحظ في تعريف برنارد لويس هو تركيزه على المعنى الأكاديمي للاستشراق بوصفه اختصاصا علميا، وذلك رغبة منه في إضفاء صفات الموضوعية والنزاهة والحياد والسعي وراء الحقيقة في هذا الاختصاص. وبهذا يبعد برنارد لويس كل مساوئ التحيز والفساد والقوة عن الاستشراق، وهي مساوئ ركز عليها إدوارد سعيد في تعريفه للاستشراق الذي أورده في كتابه" الاستشراق" الذي زلزل به الأركان الوطيدة لهذا التقليد الثقافي العريق، يكتب إدوارد سعيد في مدخله معرفا المستشرق فيقول: "كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه في وجوهه المحددة أو العامة هو مستشرق، وما يقوم به هو استشراق".

وفضلا عن هذا المعنى الأكاديمي ثمة معنى أكثر عمومية منه يَطَالُ أسلوب التفكير، والاستشراق بهذا المعنى عند إدوارد سعيد هو أسلوب في التفكير قائم على تمييز أنطولوجي وإبْسْتِمُولوجي جُعل بين الشرق والغرب، وهكذا فإن مجموعة كبيرة من الكتاب من بينهم شعراءُ وروائيون وفلاسفة ومُنَظِّرون في علم السياسة، وعلماء الاقتصاد قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب، منطَلقا لنظريات وروايات وأوصاف اجتماعية تتصل بالشرق وأهله وعاداته وعقله ومصيره وغير ذلك.

يضيف إدوارد سعيد معنى آخر للاستشراق بوصفه المؤسسة مهمتها التعامل مع الشرق التعامل معه بإصدار تقريرات عنه، وباختصار: الاستشراق بوصفه أسلوبا غربيا للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه وامتلاك السلطة عليه.

ويشير رضوان السيد في مقالة له بعنوان: "الاستشراق والمستشرقون بين الغلو والمغالاة " إلى أن الاستشراق معرفةٌ موضوعها الشرق ينتجها غير الشرقي عن الشرق... والمقصود بهذه المعرفة بالطبع ليس الشرق الذي هو موضوعها، ولا شأن له بها، فقد أُنتجت لتخدم مجتمعا منتجها في مواجهة لهذا الشرق بلغة يفهمها، وهو في النهاية ممول عملية الإنتاج هاته والمشرفُ عليها عن طريق مؤسسات إنتاج المعرفة التي يقيمها لأغراض عامة أو خاصة، وهذا طبيعي جدا، فلكل مجتمع مؤسساته التي ينتج من خلالها المعرفة التي تعينه على فهم مختلف في وجوه الحياة، والعلاقات الداخلية والخارجية.

بالالتفات إلى ما تقدّم يمكن لنا أن نذكر للاستشراق تعريفين: الأول عام، والثاني خاص، وذلك على النحو الآتي:

أ ـ التعريف الجامع والعام:

الاستشراق عبارة عن الجهود العلمية التي قام بها الغربيون من أجل التعرّف والتعريف بالبلدان الشرقية وظروفها الجغرافية، ومصادرها وثرواتها، التي تشمل الشرق الأقصى إلى الشرق الأدنى، وشرق البحر الأبيض المتوسط، وحتى البلدان الإسلامية الأخرى في شمال أفريقية وسائر نقاط العالم، من أجل معرفة معانيها، وتاريخها وشعوبها ولغاتها وأدبياتها وفنونها وآدابها وسننها وعاداتها وتقاليدها وثقافاتها ومعتقداتها وأديانها وحضاراتها وخصائصها النفسية وحساسياتها الروحية، وأبعادها الخطيرة، ومواطن سكانها والقاطنين فيها. بغية اكتشاف ثرواتها المادية المعنوية، وتسخيرها لصالح الغربيين. وهذا التعريف وإن كان طويلاً إلا أنه جامع.

ب ـ التعريف الخاص:

إنّ الاستشراق الذي هو محطّ نظر ونقد العلماء المسلمين، والذي هو هدفنا في هذا البحث يختص بمساحة خاصّة من الجهود الاستشراقية، وهو عبارة عن: «معرفة الإسلام من قبل غير المسلمين».

المحور الثاني: في المدارس الاستشراقية.

قد يبدو من هذا العنوان أن للاستشراق مدارس علمية تميزه عن بعضه وهو الأمر غير الحاصل، وهو ما يفسر قلة المحاولات البحثية التي رامت تحديد مدارس الاستشراق تحديدا علميا، ومن هذه المحاولات؛ محاولة الباحث "الهراوي" حيث عمد إلى تصنيف المستشرقين إلى ثلاث مدارس على النحو الآتي:

المدارس المختصة بالمباحث القرآنية.

المدرسة المختصة بالنبي الأكرم وسيرته.

المدرسة المختصة بالتاريخ العربي.

لكنه تقسيم غير واضح المعالم، بحيث يستحيل تصور مدرسة استشراقية تُعنى بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ولا تبحث في القرآن الكريم أو تفصل التاريخ العربي عن جانبه الإسلامي، فغالبية المستشرقين عن القرآن وعن السيرة وعن التاريخ، يضاف إلى هذه المحاولة، محاولة أخرى قام بها نجيب العقيقي، قسم فيها الاستشراق إلى مدرستين هما:

المدرسة السياسية التي تبحث في الأدب بمفهومه العام.

المدرسة الأدبية التي تهتم بالآثار.

وهو بدوره تقسيم لا يستقيم، وهذا راجع بالأساس إلى أن نجيب العقيقي لم يتطرق في محاولته إلى بيان ما يميز كل مدرسة عن الأخرى، وبناء عليه؛ فإن التقسيم الأمثل هو التقسيم القائم على أساس جغرافي مع الإشارة إلى ما يميز كل مدرسة على مستوى المنهج.

الاستشراق الإيطالي أو "المدرسة الإيطالية".

يُرجع بعض الباحثين صلة إيطاليا بالاستشراق إلى القرن السادس عشر، ونجد تفصيلا لهذه الصلة في كتاب " الاستشراق أهدافه ووسائله" لصاحبه محمد فتح الله، والملاحظ عن الدراسة الاستشراقية الإيطالية، أن هذه الدراسات لم تتطور إلا خلال القرن التاسع عشر، حين تأسست الجمعية الإيطالية للدراسات الاستشراقية سنة 1871 للميلاد، فاتخذ الاستشراق منذ ذلك الحين طابعا سياسيا واقتصاديا وثقافيا، فأدى إلى التمهيد لغزو ليبيا سنة 1912 للميلاد، وهذا ما أشار إليه سعدون محمود الساموك في كتابه: "مناهج المستشرقين".

ويمكننا الحديث عن مميزات الاستشراق الإيطالي نجملها فيما يأتي:

- كانت بداية الاستشراق الإيطالي ذات طابع ديني، ثم تطورت بعد ذلك لتكون استعمارية، وقد تجلى ذلك في احتلال ليبيا، وإثيوبيا والصومال.
- إرسال البعثات الاستشراقية للعيش في الشرق والبلاد العربية، والتدريس في المؤسساتية العلمية وجامعاتها وخاصة مصر.
- حضور الكثير من المستشرقات والعناصر النسائية.
- تميز الاستشراق الإيطالي عن غيره بظاهرة التوريث، ونذكر مثالا على ذلك فرانشيسكو غابريال ابن جوزيف غابريال، وغير هذه الحالات كثير، إذ تجد الأولاد يكملون مسيرة الآباء.

الاستشراق الهولندي أو "المدرسة الهولندية".

إن علاقة هولندا بالاستشراق عريقة جدا، ولعل جامعة ليدن من أشهر الجامعات التي اهتمت بالدراسات الاستشراقية، وهي تحتوي على أضخم مجموعة للمخطوطات والمراجع العربية، وقد ظهر في هولندا الكثير من الكتب في القواعد العربية وحُققت فيها الكثير من المخطوطات، واشتهر من بين المستشرقين الكثيرون منهم: ليون هارت وجون فيرسنك وهذا الأخير هو واضع "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث".

ويمتاز الاستشراق الهولندي باحتضانه للكثير من المؤسسات العلمية التي تُعنى بالتراث الثقافي، بالإضافة إلى جامعة ليدن، هناك معهد الشرق الأوسط الحديث بجامعة أمستردام.

الاستشراق الفرنسي أو المدرسة الفرنسية.

الاستشراق الفرنسي قديم، بيد أن الاهتمام به تزايد إبان القرن السادس عشر الميلادي، عندما أُنشئت الكلية الملكية لتدريس اللغات الأجنبية، وفي القرن السابع عشر للميلاد، ازدادت الدراسات الاستشراقية الفرنسية لأسباب سياسية، فكثرت الدراسات التي تبحث في تاريخ البربر في الشمال الإفريقي.

ولم تكن فرنسا كغيرها من الدول الاستعمارية الغربية، بحيث لم تكتفِ بنقل التراث الإسلامي ومحاولة تشويهه، بل كانت تسعى مع ذلك إلى مسح أهم الآثار التي تربط الشعوب الإسلامية بتراثها الإسلامي، وهنا تكمن خطورة الاستشراق الفرنسي، وقد كان لجامعة "السوربون" ذات الشهرة العالمية، أثر واضح لترشيد الدراسات الاستشراقية في فرنسا.

الاستشراق الأمريكي أو " المدرسة الأمريكية".

ورثت الولايات المتحدة الأمريكية في بداية أمرها الاستشراق من مجموعة من البلدان الأوروبية لسبب يسير جدا، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية شكلت أرضا لتلاقي سكان مختلفين من أقطار أوروبية متعددة، وما نسجله هو أن الاستشراق الأمريكي خلافا للمدارس الاستشراقية الأخرى لا يتمتع بماض عريق، فهو استشراق حديث حداثة أمريكا نفسِها، بيد أن المسجل أيضا هو أنه على الرغم من حداثة الاستشراق الأمريكي، فإنه يمثل الأبرز في زمننا المعاصر، بحيث أن الولايات المتحدة الأمريكية صارت معقلا لأهم مراكز الاستشراق، وأخذ أبرز أعلام الاستشراق يتخذون من أمريكا وجامعاتها مقرا لهم، وقد تأسست بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1927 مجلة (الشرق الأوسط)، والتي أخذت على عاتقها دراسة الشرق الأوسط حضارة و ثقافة.

ما يسجل أيضا في ارتباط الاستشراق الأمريكي أنه الأكثر توظيفا لتحقيق الاغراض السياسية والاقتصادية والاستعمارية البحتة.

يقول أحد المستشرقين الأمريكيين: إن طابع القرار السياسي الأمريكي لم يكن يتكهن بالثورات التي حدثت في المنطقة العربية من هنا فقد صارت الدعوة ضرورية وملحة لاستحداث نوع جديد من الاستشراق يركز على التاريخ الحديث والمعاصر للأمة العربية لا كما هو الحال في الاستشراق التقليدي الذي يركز على التاريخ العربي الوسيط. وهذا هو السر في تفوق الاستشراق الأمريكي وتغلبه على الاستشراق الأوربي، وذلك لصلته الوثيقة بالهيمنة التي مارستها أمريكا على شعوب العالم بأسره، والشرق العربي في مقدمته.

الاستشراق الألماني:

يمكن القول بأن الاستشراق الالماني استشراق قديم فاهتمام المستشرقين الألمان بالتراث العربي والإسلامي اهتمام قديم، كما يمكن القول أن الاستشراق الالماني استشراق لم يخضع كما خضعت بعض الاستشراقات الأخرى بغايات سياسية أو احتلالية أوربية. و لم تكن الدراسات الاستشراقية الالمانية متصفة بروح عدائية على الرغم من وجود مستشرقين أتوا بآراء خاطئة تجاه القرآن الكريم م مثل آراء (تيودور نولدكه 1856_ 1930) في كتابه (تاريخ القرآن) و يعتبر (تيودور نولدكه) شيخ المستشرقين الألمان. وقد أنكر في كتابه هذا إمكان نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، بل اتهم النبي صلى الله عليه وسلم بقول الشعر كما اعتبر القرآن مأخوذ من الثقافات المعاصرة له، اليهودية والنصرانية والجاهلية، على الرغم من تطرف هذا الرأي لم يصنف الاستشراق الألماني باعتباره استشراقا استعماريا لسبب يسير هو البعد المعرفي في هذه الآراء.

ومن المؤيدات لهذا الطرح التنبيه إلى أن كتابات إدوارد سعيد حول الاستشراق لم تكن سلبية تجاه الاستشراق الألماني. ويمكن تلخيص ميزات الاستشراق الألماني مقارنة ببقية الاستشراقات الأخرى بما يلي:

- أنه أميل إلى الاستشراق التقليدي، وبهذا لم يعبث المستشرقون الألمان بالتاريخ الإسلامي.
- كون الاستشراق الألماني أعمق وأنزه الاستشراقات بحيث أنصف غالبية المستشرقين الألمان بقدر عال من التفاني في العمل والمثابرة وغلبة الروح العلمية والاتصاف بالموضوعية والتجرد والإنصاف.
- ركز غالبة المستشرقين الألمان على نشر تحقيق وفهرسة المخطوطات العربية الإسلامية، مع الاهتمام الواضح بوضع المعاجم العربية، والمعاجم العربية الألمانية. ويكفي أن نشير إلى أن عدد التحقيقات والدراسات للمخطوطات العربية من لدن المستشرقين الالمان فاقت الخمسمائة دراسة وتحقيق.

وعن أسباب نزاهة الاستشراق الألماني يتحدث كثير من النقاد عن جملة من الأسباب منها؛ ما عرف عن الألمان من جدية وموضوعية وعمق في البحث العلمي بعيدا عن التوظيف السياسي أو الديني للبحث في أغراض غير علمية. لهذا قال الدكتور صلاح الدين المنجد عنهم: "إنهم أوتوا الكثير من سعة العلم والتمكن من العربية والاخلاص للبحث والتحرر والانصاف فجاءت دراساتهم مثمرة.

المحور الثالث: ملاحظات حول النقد الغربي للاستشراق

يمكن الوقوف عند ملاحظات النقد العربي للاستشراق من خلال أربع مراحل كالآتي:

- مرحلة استكشاف الاستشراق
- مرحلة السجال مع الاستشراق
- مرحلة كشف البنية المعرفية للاستشراق
- مرحلة الدعوة إلى علم الاستغراب

ونشير ابتداء أن خطابات المثقفين العرب إزاء الاستشراق ليس كتلة واحدة منسجمة، وإنما هي مشكلة من عدة اتجاهات متغايرة ومتنوعة بل ومتناقضة. وهي النتيجة التي اتفق حولها العديد من الباحثين الذين تناولوا الخطاب العربي إزاء الاستشراق بالدراسة: رضوان السيد، عبد الجبار الرفاعي، علي أومليل، بنسالم حميش...

المرحلة الأولى: اكتشاف الاستشراق

انطلق نقد المستشرقين في الدراسات الإسلامية قبل اكثر من مائة وخمسين عام. حينما ناقش السيد جمال الدين الأفغاني محاضرة ألقاها ارنست رينان وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين، من على منبر بباريس في 29 مارس 1883 حول الإسلام والعلم.

وقد أشار رينان في هذه المحاضرة، إلى أن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية بل هو عائق لها، بما يشتمل عليه من اعتقاد بالغيبيات وخوارق العادات وإيمان تام بالقضاء والقدر. وأن الإسلام يحارب العلم والفلسفة.

لقد اطلع جمال الدين الأفغاني على المحاضرة فانبرى للرد على شبهات رينان التي تمحورت حول اتهام المسلمين بالعجز العقلي واتهام الإسلام بازدراء العلم والفلسفة، فدحض هذه التهم في مقال صحفي، ويتلخص رده في مناقشة كلام رينان: أن المرء ليتساءل بعد أن يقرأ المحاضرة غن آخرها أصدر هذا الشيء عن الديانة الإسلامية نفسها، أم كان منشأه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام وعاداتها هي جميعا مصدر ذلك. يمكن اعتباره هذه المقالة فاتحة عهد جديد في تقويم الآراء الغربية حول الاسلام ومحاولة شجاعة وجريئة لتصحيح صورة الاسلام في الوعي الغربي، بل إن جهود الافغاني لم تتوقف عند هذه الحدود، وإنما يمكن أن ترجع إليه كشفه لوجه أوربا الاستعماري، وإماطة اللثام عن كيد السياسة الانجليزية في العالم الاسلامي من مقالاته في مجلة" العروة الوثقى"، وغير ذلك.

وفي هذا المجال انتهج محمد عبده منهج أستاده جمال الدين الافغاني، فناقش أفكار رينان أيضا. وشدد في مناقشة على ضرورة الفصل في القيم، وعدم الخلط في تقييم الفكر والمبادئ بقيم حامليها والمتصلين بها. وعمد الى بيان عقيدة القضاء والقدر التي كانت محور تشنيع رينان على الاسلام بما يبعدها تماما عن شبة الجبر، وأوضح كيف أن عقيدة التوحيد تكون حفزا على العمل والسعي الإيجابي في الحياة.

المرحلة الثانية: مرحلة السجال مع الاستشراق

ما لبث الحديث حول الاستشراق أن اكتسى لونا جديدا بعد الحرب العالمية الثانية وصدور عدة كتب في هذا المنبر اتخذ النقاش فيها صيغا أخرى غير ما كان متداولا ذلك وقد استهل هذه المرحلة كتاب: "التبشير والاستعمار " الذي بدأ بتأليفه مصطفى خالدي وعمر فروخ سنة 1945 وصدر في

عام 1953 ثم استمر الأخير يقويه بما يتوافر لديه من بيانات ووثائق يضم الكتاب كمية وفيرة من المعلومات والأرقام حول حركة التنصير وآثارها العقائدية والثقافية في العالم العربي وطبيعة عمل المؤسسات التبشيرية وقنواتها ومشاربها في المجتمعات الإسلامية. وفي عام 1957 أصدر الدكتور محمد البهي كتاب" الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي" وقد شن فيه هو الآخر هجوما لاذعا على مؤسسة الاستشراف الى الحد الذي رأى فيه أن العديد من التيارات التي شكلت في الفكر الإسلامي الحديث، تستمد رؤيتها من فرضيات المستشرقين، وشدد على أن جهود المستشرقين تنطلق من روح صليبية. ولهذا فالبهي يؤكد؛ أن كتابات المستشرقين تسعى الى اضعاف القيم الإسلامية وتمجيد القيم الغربية المسيحية، كما يشير البهي الى أن دراسة المستشرقين للإسلام قامت بوحي من الكنيسة الكاثوليكية للانتقاص من الإسلام وإهدار قيمه.

وعلى النهج ذاته ألف الباحث الهندي المسلم الشيخ الندوي كتابا سماه" الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" سنة 1958 تناول فيه أثر أفكار المستشرقين على البلدان الإسلامية، ومدى انتشار هذه الأفكار في عقول وأبحاث الدارسين في الجامعة العربية. ذلك أن بعض الجامعيين هم ممن تشبعوا بروح الغرب وتنفسوا برئته وفكره وبعقله وليس لهم منهم سوى ترديد صدى اساتذتهم ونشر افكارهم. غير أن كتاب الشيخ الندوي اتسم بحماس مشبع باتهام جماعة من المفكرين بأنهم دعاة للفكر الغربي، بل عملاء للاستعمار الأوربي، وهي اتهامات لا تخلو من تعسف ومجافاة للحقيقة أحيانا.

وقبل ذلك أصدر عز الدين فراج كتيبا عام 1953 تحت عنوان: "نبي الإسلام في مرآة الوعي الغربي" تناول فيه صورة رسول الله تعالى في الوعي الغربي، ومكونات هذه الصورة وترسبات الحقبة الماضية، وما راكمته خلال الحروب الصليبية من أحقاد إزاء الإسلام والمسلمين، وأثرها في بناء الصورة.

المرحلة الثالثة: تشخيص بنية المعرفة الاستشراقية.

منذ مطلع العقد السابع من القرن العشرين شهدت دراسة الاستشراق منعطفا جديدا بعد أن انخرط في تقويم ونقد مناهج المستشرقين بعض الأكاديميين المعروفين من غير المسلمين، ففي عام 1963 م بادر الدكتور أنور عبد المالك إلى نشر مقال في مجلة "ديوجين" الصادرة في باريس بالفرنسية بعنوان " الاستشراق مأزوما ".

ولد أنور عبد الملك في القاهرة عام 1923، درس علم الاجتماع والفلسفة، وأنهى دراسته في الكلية اليسوعية الفرنسية (القاهرة)، والسوربون (فرنسا)، ودرس الفلسفة لعدة سنوات في مدرسة الحرية (القاهرة)، وأصبح عبد الملك بعد هذه السنوات كاتبا وصحفيا له مكانته، وبسبب ميوله اليسارية لم يعد على وفاق مع الحكومة المصرية، فقرر الانتقال إلى باريس، حيث عمل في المركز القومي للبحث العلمي.

في مقاله " الاستشراق في أزمة" يناقش عبد الملك، المتحمس للماركسية أن الانتصارات التي قامت بها حركات التحرر الوطنية المتنوعة بعد الحرب العالمية الثانية أنتجت أزمة في لب الاستشراق، الذي لوثته كثيرا المركزية الأوروبية. ولهذا كان الاستشراق بحاجة إلى مراجعة جذرية، كالعديد من الموضوعات السابقة للدراسة والبحث. لقد أصبحت الآن الشعوب المستعمرة ذات سيادة.

بالطبع، أنتج الاستشراق الكثير من الأعمال ذات القيمة، ففي مجال اللغة العربية والدراسات الإسلامية ـ على وجه الخصوص ـ أسهم الاستشراق في فهم الحضارة القديمة، وفي جمع وفهرسة الكثير من المخطوطات العربية، المحفوظة غالبا في المكتبات الأوروبية، وفي نشر كثرة كاثرة من الأعمال المهمة، وأسس منهجا للدراسة معترفا به، ونظم المؤتمرات الاستشراقية، وأسهم في إحياء الوعي الوطني للكثير من البلاد الآسيوية والإفريقية. لكن ثمة حقيقة باقية وهي أن الاستشراق تأثر عميقا بالتحيز، تحيز أظهرته مجموعة من أساتذة الجامعات، ورجال الأعمال، والعسكريين، والموظفين الاستعماريين، والمبشرين،

ومروجي الدعاية، والمغامرين، الذين كان هدفهم الوحيد جمع المعلومات الاستخباراتية للمنطقة المراد استعمارها، والولوج إلى وعي شعبها، لضمان استعبادهم بالطريقة الفضلى.

مال المستشرقون إلى رؤية الشعوب الشرقية " موضوع الدراسة " مشبعة بآخر مكون لشخصية جوهرية، تاريخية، لا يمكن تحويلها، ولا إدراكها أو فهمها. وكان متوقعا ممن هم "موضوعات الدراسة" تلك أن يكونوا مذعنين، غير فاعلين، وغير مستقلين، ولا ذوي سيادة، في مقابل الذي يقوم بالدراسة، الأوروبي " الإنسان الطبيعي" المتصف بالعلو والسمو.

التصورات الجوهرية لمثل هذه الشعوب عبرت عنها تصنيفات عرقية متعددة، مثل الإنسان الصيني، والإنسان العربي، والإنسان الإفريقي، وأحيانا يعبر عنها بالنقد الواضح الصريح.

وقد حدد الأسلوب الأساسي الذي تبناه المستشرقون الكثير من طرائق دراستهم. ومن المسلم به أن دراسة الثقافات والحضارات . مثل حضارة اليونان وروما القديمتين . ينبغي أن تهتم أساسا بأهم مكونات هذه الثقافات (اللغة والدين)، وبمراحل إنجازاتها الكبرى، ولكن قليلا من الاهتمام أعطي لوضعها الحالي، الذي كان مفترضا أن يعاني من الانحطاط والتفسخ، ولم يكن التطور الاجتماعي بمسموح. أما بالنسبة لأعمال العلماء الذين ينتمون إلى الشرق، فهذا ما يجب تجاهله إلى حد بعيد، أو المرور عليه في صمت، أو التقليل من شأنه، لأنه نتاج عقلية " شرقية" مفترضة.

ولكي ييسروا دراستهم لمثل هذه الحضارات والثقافات " الكلاسيكية" أو " الميتة" جمع المستشرقون الغربيون في المكتبات والمتاحف الأوربية . مثل المتحف البريطاني (لندن)، ومتحف (باريس) . مجموعات عظيمة من المخطوطات الشرقية، ومواد أخرى تتعلق بالشرق. وممن قدم السند والعون للمستشرقين في هذا الشأن الإداريون المستعمرون، والمبشرون الكاثوليك والبروتستانت، وآخرون غيرهم. ولقد بقي العديد من هذه المجموعات ممنوعة على العلماء، خصوصا أولئك الآتين من الشرق.

وفقا لعبد الملك فإن عددا من العلماء الأوروبيين . منذ سنوات حديثة العهد . اعترفوا بالأزمة الواقعة في قلب الاستشراق، إلا أن استجابتهم انقسمت بين تلك التي تخص القوى الاستعمارية، ومنها أمريكا " الأوروبية"، وتلك التي تخص الدول والحركات الاشتراكية لأوروبا الشرقية.

إن مقالة الدكتور أنور عبد المالك دشن عهدا جديدا في تشخيص بنية المعرفة الاستشراقية، وتفكيكها، من هنا جرى التعامل مع هذا المقال بغضب ورفض شديدين في دوائر الاستشراق الغربي، فكتب "فرانسيسكو غابريالي"–وهو من كبار المستشرقين الايطاليين مقالة بعنوان " الثناء على الاستشراق" ردا على مقالة انور عبد المالك ونشرها في المجلة ذاتها عام 1965 م دافع فيها عن انجازات المستشرقين ودعا الى ضرورة تبني مناهجهم في الدراسات الاسلامية.

وفي السياق ذاته وجه المستشرق الفرنسي المعروف بـ "كولد كاهين" رسالة الى رئيس تحرير المجلة يرد فيها على انور عبد المالك نشرت بجوار رد "غابريالي" في العدد نفسه.

لقد تجاوز انور عبد المالك الأسلوب التقليدي الذي تعاطاه الاسلاميون من قبل في محاكمة شبهات الاستشراق فتوغل الى اعماق المعرفة الاستشراقية واكتشف النسيج المعرفي الذي ينتج الأحكام الاستشراقية. إن مقالة الاستشراق مأزوما، مهدت الطريق لاتجاه مختلف في نقد الاستشراق يستند الى ادوات جديدة في تحليل مناهج المستشرقين والتعرف على محتواها.

في عام 1971م درس مالك بن نبي ماديات نفوذ رؤية الاستشراق في بحث نشره بعنوان "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الاسلامي الحديث" وبعد ذلك بخمس سنوات اي في سنة 1976م تناول عبد الكبير الخطيبي الاستشراق بالنقد والتحليل.

غير أن العاصفة الأعنف التي مني بها تراث الاستشراق ولدت هذه المرة في محيط أكاديمي غربي بعد صدور كتاب"الاستشراق" لإدوارد سعيد سنة 1978م وقد ترجم من الانجليزية الى الفرنسية سنة 1980م، وفي عام 1981م ترجمه الدكتور كمال أبو ديب الى العربية والذي وصفه في سياق تقديمه

له؛ بأنه ثورة جديدة في الدراسات الإنسانية، تعطي دورا كبيرا للسياسة وتكشف عن آلية السلطة والسياسة والقوة والتلاعب التحكمي فيها.

إدوارد سعيد فلسطيني، بروتستانتي، ولد عام 1935، نشأ وترعرع في فلسطين ومصر وأمريكا، درس في هارفرد، وبعد حصوله على الدكتوراه من هارفرد عام 1964 انتقل إلى نيويورك، حيث درس الأدب الإنجليزي والمقارن في جامعة كولومبيا. انخرط سعيد في أواخر الستينات بالنشاطات الطلابية المناهضة للحرب على فيتنام، وفي السبعينات بحركة التحرير الفلسطينية. وفي عام 1977 أصبح سعيد عضوا في المجلس الوطني الفلسطيني. نشر عددا من الكتب قبل كتابه: "البدايات: القصد والمنهج".

إن هذا الكتاب ليس دراسة للاستشراق بوصفه تاريخا وشخصيات وأحداثا، بل هو اكتناه للمعرفة والسلطة والطغيان الذي يمارسه الإنسان الغربي، إنه كتاب يتناول الغرب واشكالاته الفكرية.

وبالرغم من ان كتاب ادوارد سعيد تواصل مع مقالة انور عبد المالك، لكن كتاب سعيد أثار ردود فعل أكثر اتساعا وشمولا، انخرط فيها نخبة من المستشرقين فضلا عن المفكرين العرب، فقد ناقش اطروحات سعيد "كلوب كاهين" و"برناردلويس" وغيرهما من المستشرقين. برنارد لويس له مقالة بعنوان "مسألة الاستشراق" عبارة عن نقد لاذع لآراء سعيد حول الاستشراق، وذلك أمر طبيعي بالنظر الى النعوت التجريحية التي وصف بها سعيد برنارد لويس في كتابه. وينصب انتقاد لويس لسعيد بداية حول تعريف كلمة مستشرق واستشراق لقد شن سعيد بتعريفاته للاستشراق طعنا لاذعا في العلم الاستشراقي وتأثيم لكل اتباعه وهو مالم يستسغه برنارد لويس فكتب متسائلا ما هو الاستشراق؟.

إن كتاب سعيد عمل علمي مشوب بعاطفة كاتب حر يحمل في اغترابه القصري هموم وطنه المصادَر الحقوق، هو اول مبعوث عربي ينفذ الى العالم الضد يكتب عنه من داخله ويعريه من هيبته العقلية ويضعه في مكانه الحقيقي محتالا دوليا يتخذ من العلم والتقنية وسيلة ضاربة للسحر، كما يقول هادي.

ولم تنقطع الكتابات عن استشراق سعيد بل أمسى واحدا من اشد الاطروحات اثارة، وإنه من النادر –وليس ذلك من المبالغة في شيء– ألا نجد إحالة مرجعية أو اشارة الى كتاب سعيد في الكتابات التي تناولت الاستشراق.

ومن الأطروحات البالغة الأهمية، التي طورت النقاش حول الاستشراق وهتكت الأستار التي ظلت تحتجب وراءها تحيزات المعرفة الاستشراقية لكل ما هو غربي، كتاب الدكتورة رنا قباني، الذي أصدرته بالانجليزية عام 1986، وترجمه بعد عامين الدكتور صباح قباني إلى العربية، ونشره بدمشق، تحت عنوان" أساطير أوروبا عن الشرق: لفق تسد".

وتتمحور دراسة قباني على تشخيص تشوهات صورة الشرق في الوعي الغربي، وبيان أساطير وغرائب وخوارق، اختلقها ولفقها الرحالة والمستشرقون، عن الشرق، وما يزال الغرب يمعن في تكريسها وتبنيها.

كتبت صحيفة الأوبزيرفر البريطانية عن هذا الكتاب تقول: "إن رنا قباني ـ المولودة في دمشق ـ أخذت على عاتقها إنقاذ الشرق العربي والإسلامي، مما لحق بهما من ازدراء غربي، على مدى قرون عديدة، ولا شك أنها في غضبتها العارمة، التي تغلي في كل سطر من سطور كتابها، كانت على حق تماما". فيما كتبت صحيفة الغارديان:" إن رنا قباني استطاعت كإمرأة عربية، ذات حجة قوية، أن تسقط الأقنعة عن وجوه الكتاب الغربيين الاستشراقيين، الذين كانوا في نظر مواطنيهم أنصاف آلهة".

ثلاثة خيارات

كيف يمكن لنا نحن العرب، في ضوء ما تقدم عن واقع العلاقة بين الاستشراق والعرب، هذه العلاقة المحكومة بالثنائية وتكافؤ الضدين، أن نتعامل كداخليين مع هذا التقليد الثقافي العريق؟ وماهي الخيارات المتاحة أمامنا؟

يبدو لي ـ وبغرض تبسيط الأمور ـ أننا أمام خيارات ثلاثة:

1. أن نرفض هذا التقليد جملة وتفصيلا ونوفر على أنفسنا عناء مناقشته.

2 ـ أن نقبله دون تحفظ وأن نغضي طرفنا عما فيه من تضمنات أيديولوجية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية.

3 ـ أن نتعامل معه تعاملا نقديا، وأن نأخذ ونرفض على هدي البصيرة النقدية، والتفحص المتمعن أو قل أن نواجهه مواجهة إيجابية.

الرفض المطلق

يبدو لي أن هذا الخيار هو أسهل الخيارات فهو يريحنا من الكثير من العناء. وهكذا نجد أنفسنا أننا لسنا بحاجة إلى تتبع ما يصدر عنه من حصيلة ثقافية.

القبول غير المشروط

أما الغباء الثاني فهو قبول كل ما يأتينا به الاستشراق على عواهنه، وإغضاء الطرف عما فيه من تضمنات أيديولوجية وسياسية، واعتماد بياناته أساسا لفهم أنفسنا، ولم لا، وهو حصيلة ثقافة غربية رفيعة تصدر عن حضارة غربية نحاول جهدنا الوصول إلى ما وصلت إليه ونسعى إلى محاكاتها بكل ما أوتينا من قوة.

المواجهة الإيجابية

ولكن ماذا عن الخيار الثالث، والذي أود أن أعنونه بالمواجهة الإيجابية لهذا التقليد الثقافي، هذه المواجهة التي ينبغي أن تتسم بالوعي والمعرفة والحس النقدي والثقة بالنفس؟ وهو ما سنفصل القول فيه في المحور الرابع المتعلق بعلم الاستغراب.

المرحلة الرابعة: الدعوة لتأسيس علم الاستغراب مقابل الاستشراق.

تبدأ ارهاصات هذه المرحلة منذ فترة بعيدة في تاريخنا الحديث، إلا ان الصيغة النظرية للاستغراب باعتباره الوجه الاخر النقيض للاستشراق، وجدت هذه الصيغة أسسها ومرتكزاتها المنهجية في كتاب الدكتور "حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب" الصادر سنة 1991م.

وقد استعمل مصطلح الاستغراب الدكتور انور عبد المالك أكثر من ثلاثة عقود في كتابه " الفكر العربي في عصر النهضة "،وكان مفهوم الاستغراب يعني الانفعال والتأثر بالفكر الغربي واستنساخه كما هو والدعوة للإقلاع عن الهوية الحضارية غير ان الدكتور حسن حنفي أطلق كلمة الاستغراب على معنى جديد جعله الوجه الاخر المقابل بل النقيض للاستشراق، وفي مقابلة الاستغراب بالاستشراق يخلص حسن حنفي مهمة الاستغراب بأنه إذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور الاخر فإن الاستغراب هو محاولة معرفية ترمي الى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والاخر والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الاخر.

فمنذ الاستشراق القديم الذي نشأ واكتمل في عنفوان المد الاستعماري الاوربي لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات على الشعوب المستعمرة، أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتا واعتبر اللاَّغرب هو الآخر فأصبح موضوعا. إن مهمة الاستغراب هي فك عقد النقص تاريخيا في علاقة الأنا بالآخر مهمة القضاء على مركب النقص في عالمنا أمام الغرب (لغة وثقافة وعلما).

إن الاستغراب لا يهدف الى تدمير الثقافة الغربية وإنما يهدف الى تحليلها والتعرف على مكونها الاساسي ودراستها بعمق، بغية خلق مناعة ومقاومة وحساسية من تشوهاتها وبعض عناصرها التدميرية، وبالتالي تحصين الهوية الحضارية لأمتنا من العناصر القاتلة في ثقافة الآخر، وقد أثارت الدعوة لتأسيس

علم الاستغراب بعض المثقفين فكتبوا حولها مراجعات تقويمية كشفت عن روح التفاؤل التي قد ترقى الى درجة الحلم في هذه الدعوة.

وبغض النظر عما تنطوي عليه تلك التقويمات من خطأ تظل الحاجة لتأسيس علم الاستغراب ملحة في عالمنا الذي ما فتئ يعيد انتاج أدوات التبعية للغرب في كل شئ. فهل نحن مؤهلون لهاته المهمة؟

المحور الرابع: نحو علم استغراب إسلامي: قراءة في المفهوم والدواعي والمداخل النظرية

من المسائل الشائكة في عالم الأفكار في العالم الإسلامي كيفية التعرف على الغرب ومعرفة أنساقه الفكرية وتجربته الحضارية وخصائصه التي تميزه عن غيره من الكيانات الحضارية. الأمر الذي يصبح معه الدعوة إلى تأسيس علم استغراب يمكن من دراسة الغرب وفهم منطلقاته وأهدافه ونظم حياته الثقافية والفكرية، على أساس علمي وعملي، ضرورة حضارية وواجب شرعي.

من المعلوم أن إرهاصات هذا العلم بدأت من فترة بعيدة في تاريخنا الحديث، إلا أن الصيغة النظرية للاستغراب، باعتباره الوجه الآخر النقيض للاستشراق، وجدت هذه الصيغة أسسها ومرتكزاتها المنهجية في كتاب مقدمة في علم الاستغراب لحسن حنفي والصادر سنة 1991م. وقد جعل حنفي مهمة الاستغراب؛ هي فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، والقضاء على مركب النقص لدى الأنا، بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس، مهمته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلماً ومذاهب ونظريات وآراء.

تأتي دراستنا الموسومة ب: "نحو علم استغراب إسلامي" مستفيدة مما طرحه حسن حنفي في "مقدمة في علم الاستغراب"، باعتبارها دعوة لتجلية مفهوم "الاستغراب" في أبعاده الدينية والحضارية والثقافية، ودعوة لمحاولة تصحيح الوضع غير المتوازن بيننا وبين الآخر/الغرب، ودعوة لإنهاء الأشكال الجديدة للهيمنة الغربية، عَبْر قيام علم جديد يهتم بدراسة الغرب. علم يمكن من دراسة الغرب، علم له منطلقات ومرجعية واضحة، وله أهداف وطموحات نافعة.

غرضنا –إذا– من هذه المحاولة هو أن نبين دواعي الاشتغال بعلم الاستغراب، والإشارة إلى أهم المداخل النظرية المكن أن يتأسس عليها هذا العلم. ونأتي بهذا البيان من خلال تناولنا بالدراسة والتوضيح دوافع إنشاء علم استغراب إسلامي، وذلك بعد تناولنا لمفهوم "الاستغراب" بالدراسة من خلال ما استجد على الساحة العلمية والفكرية من نقاش حول المفهوم والرؤى حوله.

أولا: علم الاستغراب: قراءة في المفهوم.

من المصطلحات والمفاهيم التي لم تنل حظها من العناية بحثا ودراسة، في فكرنا العربي والإسلامي المعاصر مفهوم "الاستغراب"، بما هو علم معرفة الغرب. فعلى الرغم من تداول مصطلح "الاستغراب"، فإن سبر معناه يثير الاستغراب؛ فقد ألفينا تعبيري "الاستشراق" و "المستشرق"، نتيجة انهمام مؤسسات متخصصة بهذين الحقلين في أوربا وأميركا منذ قرنين من الزمان. في المقابل غابت الدراسات في مجالي "الاستغراب" و "المستغرب". ولعل من النادر العثور على مصطلح (oxidentalism) (الاستغراب) كمقابل لمصطلح (orientalism) (الاستشراق) في أي معجم لغوي، وفي حال وجوده، فلا يشير إلى الاستغراب المتوخى.

ففي عالم المفاهيم يمسي الكلام على مصطلح "الاستغراب" أكثر تعقيدا. مرجع الأمر إلى فرادته وخصوصيته، وإلى حداثة دخوله مجال المداولة في الفكر العربي والإسلامي المعاصر. إذ إن هناك غيابا شبه كلي للمساعي التي تعمل على تعميق النظر في "علم الاستغراب" بما يجعل تعميق النظر يضاهي

"علم الاستشراق" الغربي. يزكي هذا الرأي ويدعمه أن نصيب التأليف في "علم الاستغراب" ظل هو الأقل مقارنة بغيره من العلوم والمعارف والفنون في تراثنا المدون بالعربية قديما وحديثا، فحين نطالع مراجع بيليوغرافية اهتمت باستقراء وتصنيف الكتب، نجد التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه وعلم الكلام وغيرها، احتلت حيزا واسعا من عناوين المؤلفات المذكورة في تلك المراجع، بينما لا نعثر على مدونات مستقلة تعالج البحث النظري في "علم الاستغراب" في الفترة المبكرة في عصر التدوين...

أما المحاولات الحديثة والمعاصرة في هذا الاتجاه، فلم تزل محدودة وضيئلة مقارنة بالمتطلبات الحضارية الملحة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية التي تجتاحها أعاصير وموجات تقوض بناها التقليدية وتسوقها نحو فوضى شاملة ومصائر مجهولة. إلى أن يؤلف حسن حنفي كتابه: "مقدمة في علم الاستغراب" الذي دشن أرضية تأسيس علم جديد بموازاة العلوم والمعارف الأخرى في المجال الإسلامي، ليأتي هذا العلم مواجها للتغريب "الذي امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية و تصوراتها للعالم و هدد استقلالنا الحضاري ، بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية و نقاء للغة و مظاهر الحياة العامة وفن العمارة".

فقد رفع حسن حنفي "علم الاستغراب" أو البحث فيه إلى مرتبة العلم الكامل، وفرض بذلك في المجال الإسلامي اختصاصا فكريا موازيا لذلك الاختصاص الذي فرضه الغرب عندما دشن أعماله الاستشراقية. أما المحاولات التي تلت محاولة حنفي في هذا الاتجاه، فلم تزل هي الأخرى محدودة وضيئلة. الأمر الذي لا يسعف في تحديد مفهوم الاستغراب تحديدا واضحا لا لبس فيه، إلى حد اعتبار الاستغراب مفهوما مستحيلا يحول دون تأسيس فرع بحثي تحت هذا العنوان. حتى أضحى ذلك عيبا في نظر العديد من الباحثين الغربيين، حيث يعيب برنار لويس في كتابه "الاكتشاف الإسلامي لأوروبا" على العرب والمسلمين عدم تطلعهم نحو معرفة الآخر، وهو الاتهام الذي حاول لويس إثباته من خلال قراءة خاصة للتاريخ الإسلامي حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي.

في سبيل تعريف علم "الاستغراب" ميز الباحث أحمد كلاته ساداتي؛ بين نوعين من الاستغراب: الاستغراب غير النقدي والاستغراب النقدي. مثل للأول بالباحثين آهيسكا من تركيا وتوكّلي طارقي من إيران. حيث عرّفَ آهيسكا، الاستغراب أنّه أبعد من موضوع الاختيار من الحضارة الغربيّة، وأنّه أبعد من المقاومة أو الثورة في مواجهة الغرب، كما هو الحال في الشرق الأوسط. فالاستغراب استراتيجيا ونهج وتكتيكات ذات اتجاهَين خطابيّ وغير خطابيّ، يستخدمها "الشرقيّ" ردًّا على الغرب. بالنسبة إلى تركيا، الاستغراب طريق للعودة إلى الأصالة، التي قضت عليها عمليّة التحديث، وهو في الوقت عينه مسعًى لمواكبة التاريخ المعاصر. أمّا توكّلي طارقي –فيشير أحمد كلاته سادتي– إلى أنه صاحب نظرة مختلفة إلى موضوع الاستغراب في إيران. يمكن وصف نظريّته بأنّها غير نقديّة كليًّا، تأتي في سياق عرض معرفة الإيرانيّين بالغرب عرضًا وصفيًّا، كما أنّه استنادًا إلى مقالة كول "الاستغراب اللامرئيّ"، وعلى مفهوم "العقلانيّة الغربيّة" لدى فيبر، تطرّق إلى تأريخ تعرّف الإيرانيّين الغربَ منذ بداية القرن الثامن عشر الميلاديّ، وما بعده؛ إنّها رؤية بشكل عامّ غير نقديّة للغرب.

ليخلص أحمد كلاته ساداتي إلى أن في هذا النوع من الاستغراب: ليس هنالك من منحًى خطابيّ بالنسبة إلى موضوع «الغرب» وإنّما صدًى للتوجّه الذي يجعل الغربُ فيه ذاتَه موضوعًا ذاتيًّا، لا ليسيطر على موضوعه بل ليعرِّفَه للآخرين. كما إنّه توجّه مبنيٌّ بشكل عامّ على النرجسيّة، ومسعًى لتعريف الغرب بصفته مرشدًا للآخرين، يرشدهم إلى طرق العمل. وأن الغرب هو المحور الذي تدور حوله الأمور المعرفيّة بأجمعه.

على العكس من هذا التوجّه غير النقديّ، أو الضئيل نقدُه، يعرج ساداتي على موقف فِن venn من الاستغراب، يُبرز الأخير الوجهَ النقديّ للاستغراب، المبني على الأُطُر الفكريّة لميشيل فوكو، والذي كان الأساس الذي ارتكز عليه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق. يقول فِن venn آخذًا في الحِسبان موضوعَي الاستعمار والرأسماليّة في تعريف الاستغراب: "إنّ الاستغراب من خلال هذه الرؤية فضاءٌ

مفهوميٌّ وتاريخيّ، يؤلّف حكايته الخاصّة عن الموضوع وحكايته الخاصّة عن التاريخ، هذه الحكاية يمكن أن تصبح هدفًا لعدائيّة الحداثة، وأن تتأثّر بها على مستوى العالم، بسبب الرؤية إلى العالم بناء على المخطّط الذي وضعته الحداثة والاستعمار الأوروبي.

يتبين بوضوح من خلال تعريف فِن venn أنّ الاستغراب الذي يرمي إليه ليس أنموذجًا من المعرفة النقديّة للغرب، بوصفه (أي الغرب) حيّزًا مكانيًّا مختلفًا عن الشرق، وإنّما يتضمّن نظرة نقدية إلى حدٍّ ما؛ نقد لعدوانيّة الاستعمار والحداثة. إنّ تقويم فِن venn للاستغراب يأتي في سياق نظرة علم معرفيّة بالنسبة إلى تشكّل الحداثة بصفتها عرقًا خاصًّا هو العلم/القوة السلطويّة. مع ذلك، على الرغم من أنّ رؤيته مبنيّة على الأسس الفكريّة لفوكو، لكن ليس بمعنى اتخاذ موقف حيال الغرب. نوع من إثنلجة الحداثة بصفتها بِنية ناجمة عن العلم/ القوّة السلطويّة ومرتبطة بالرأسماليّة والاستعمار.

إنّ هذا الخطاب ذا الرؤية النقديّة للغرب، حين يوضع على بساط البحث في العالم الإسلاميّ، يتحوّل إلى خطاب يتجاوز البنى الفوقيّة للموضوع، محاولًا دخول مستوياته التأسيسيّة والإيديولوجيّة. وكما أنّ الغربَ في الاستغراب غير النقديّ يصبح المحور الذي تدور حوله الأمور المعرفيّة بأجمعها، ففي هذه الرؤية النقديّة يعرّف الغرب بوجهه الإيديولوجيّ، المضادّ للمفاهيم الإسلاميّة، وتوضع السيطرة الغربيّة والعدوانيّة الغربيّة موضع النقد الجدّيّ، الذي لا يزال دون ريب في مرحلة تشكّله الأوّليّة.

إذا تقرّر تعريف الخطوط العريضة لهذا المذهب الاستغرابيّ أي الاستغراب النقديّ في العالم الإسلاميّ، فالفرضيّات التالية هي الأهمّ: _الغرب موضوع يتجاوز الفكر المتعلّق بمنطقة جغرافيّة خاصّة، إنّما له مبادئه القيميّة الخاصّة .. –الغرب بنية قوليّة مناقضة ليس فقط للمفاهيم الإلٰهيّة والإسلاميّة، وإنّما أيضًا، وفي الكثير من الحالات لديها، على العكس ممّا تدّعيه، الكثير ممّا يُناقض المفاهيم الإنسانيّة.– الإمبرياليّة بعدٌ من أبعاد البنية الخطابيّة الغربيّة، متغلغلةٌ في مختلِف النواحي الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والدينيّة. – المفاهيم الإسلاميّة أفضل من المفاهيم الغربيّة سُبُلَ حلٍّ للمسائل الإنسانيّة والاجتماعيّة، وبالأخصّ

العدالة. –لقد ابتُليَ العالم الإسلاميّ مؤخّرًا بنوعٍ من الانذهال السياسي والفكري، ومن الضروريّ أن يتخلّص من هذا الوضع. وممّا يحتاجه للخروج من هذا المأزق معرفة الغرب معرفةً صحيحة.

انطلاقا مما ذكر، يمكن القول: إنّ العالم الإسلامي بحاجة إلى خطاب الاستغراب النقديّ، هذا النوع من الاستغراب يبحث عن نوع من العودة إلى الذات، ليتمكّن من الخلاص من سيطرة الغرب الفكريّة والثقافيّة والدينية.

من الواضح أن الاستغراب سيتيح للعالم الإسلامي فرصة جديدة، تمكن من معرفة الغرب وعلومه وثقافته وحضارته...وبناء على هذا يكون الاستغراب هو علم معرفة الغرب، من خلال التعرف على مناهجه وأبنيته الفكرية والثقافية والأيديولوجية، وإعادة قراءتها بروح نقدية عارفة. ومن هنا يمكن كذلك تحديد كلمة "المستغرب" وهو الذي يتبحر من أهل الشرق في إحدى لغات الغرب وآدابها وحضارتها" (احمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر)، مع القدرة على إدخال ذلك في منظومتنا الفكرية، فالمستغرب الحقيقي هو ذلك الشخص القادر على إدخال ما عرفه على الغرب في منظومتنا الفكرية، فالاستغراب لا يولد بكتابة مقالة حول الثورة الفرنسية، أو ترجمة عمل أدبي أو فلسفي، لأن الشرط الأساس لتحققه يتمثل في القدرة على التغلغل في فكر الغرب وفنه وتاريخه وترسيخ الأقدام فيها.

وقد تأتي مادة مشابهة للاستغراب من داخل الحضارة الأوربية ذاتها خاصة في الآونة الأخيرة عندما بدأ الوعي الأوربي يؤرخ لذاته، يراجع نفسه، وينقد مساره، يكشف عن مصادره التي طالما ضرب حولها مؤامرة صمت، يعترف بقلقه وتوتره، ويعبر عن حيرته المستمرة بين صورية فارغة ومادية غليظة حتى انتهى به الأمر إلى النسبية والشك في كل شيء، وإلى تكافؤ الأدلة والعدمية. هذه المادة التي يأتي بها الوعي الأوربي لذاته كنوع من النقد الذاتي واضعا نفسه في مرآة نفسه تختلف عن مادة الاستغراب التي يتم فيها رؤية الغرب من منظور اللاغرب، ورؤية الآخر من منظور الأنا. هذه المادة الثانية مادة أولى وليست مادة جاهزة، نتيجة لوصف الأنا للآخر وليس وصف الآخر لنفسه تنقلها الأنا عنه، مادة من

جهد الأنا وإبداعه وليست من إفراز الآخر. يدخل في ذلك كتابات اشبنجلر، وهوسرل، وشيلر، وبرجسون، وتوينبي.. وغيرهم من الفلاسفة المعاصرين.

مادة الاستغراب محلية صرفة من صنع الأنا وتنظيرها وتحديدها لعلاقتها بالآخر وجدلها معه وليست من نقد الآخر لنفسه ثم تقلده الأنا وتستعير نقده لنفسه باعتباره نقدها وبالتالي تقلد الأنا حتى وهي ترغب في التحرر، وكأن التقليد أصبح في روحها، تتوهم الحياة وهي تموت بالتفاف الآخر من جديد حول عنقها بحسب حسن حنفي. ومن تم فلا يمكن لمشروع الاستغراب أن يتحقق إلا بالتحرر من الغرب عبر التحرر التاريخي من عالمه والخروج منه. وهذا لا يتم إلا من خلال إدراك ماهية الغرب واستيعاب أصوله ومبادئه.

ثانيا: علم الاستغراب: قراءة في الدواعي والأهداف.

أ- في دوافع تأسيس علم الاستغراب:

لعل المطالعة الاستقرائية للكتابات التي تعاطت مع فكر الغرب توقفنا على اتجاهات ثلاثة انطلقت في تعاطيها مع المنجز الغربي بأبعاده المختلفة من إشكالية مزمنة، هي أزمة الهوية وعقدة الشعور بالنقص، وفي اعتقادنا أن هذه الاتجاهات والتي تمثل في الحقيقة مواقف الخطاب العربي والإسلامي من الآخر/الغرب، وكل موقف منها يعتبر دافعا لإنشاء علم استغراب إسلامي.
الاتجاه الأول: ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى الغرب ككل غير قابل للتفكيك والتجزئة، فهو هوية واحدة موحدة، يمثل عنوان الغازي المستعمر، الذي تجب مجافاته والقطيعة معه، والتعامل مع عطائه بحذر الشعوب المقهورة.

وعليه فإن من أهم العناصر الدافعة لتأسيس علم الاستغراب هو السعي إلى إنشاء سياق آخر من التواصل الحضاري مع الغرب تنتفي فيه مفاهيم الإقصاء والغلبة والتبعية والإكراه.

الاتجاه الثاني: ينظر أصحاب هذا الاتجاه رؤية معاكسة للاتجاه الأول وإن اتفقوا في الانطلاق من أزمة، حيث يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى ضرورة التعامل مع هوية الغرب الواحدة، بوصفها كلا غير قابل للتجزئة والتفكيك، و لكنه المنقذ المستنير الذي يجب اتباعه حذو القذة بالقذة. فحتى نواكب حياة البشر –كما يقول هؤلاء– لا بد لنا من الأخذ بكل إنجازات الغرب ومنتجه مأخذ الواله لفضلى الحياة.

وإلى ذلك؛ فإن هذا الموقف بدوره يعتبر دافعا إلى تأسيس علم الاستغراب، وذلك لجلاء أن لمعارف الغرب حواضن في المجتمعات العربية والإسلامية تتلقى تلك المعارف وترعاها، ثم لتعيد إنتاجها على النحو الذي يريده لها العقل الغربي نفسه. بيان ذلك أن هذا الأخير، يجد لدى نخب تاريخية واسعة في مجتمعاتنا من يتماهى معه في خطبته ومنطقه، أو أن يمتثل إلى معارفه المستحدثة. هذا حال من جاز أن ينظر إليهم وعلى نصاب "الاستغراب السلبي". الذي هو ناتج تفاعل مركب بين دهشة العربي المسلم بحداثة الغرب ومنجزاتها من جهة، وطريقة تعامله معها من جهة أخرى. فبنتيجة هذا التركيب على الإجمال، بدا هذا "المستغرب" في حالة استلاب وتبعية لمنظومة الغرب وخصوصياتها، وتاليا كامتداد محلي لها. أما حاصل الأمر، فكان أدنى إلى استيطان معرفي لا يفتأ يستعيد أسئلة الغرب وأجوبته على نحو الاذعان والتسليم محمود حيدر، لماذا الاستغراب؟.

الاتجاه الثالث: انطلق أصحابه من أزمة الهوية نفسها التي صدر منها الاتجاهان الآخران، ولكنه، وهو اتجاه احتل مساحة واسعة في العالم الإسلامي؛ دعا إلى تجزئة عطاء الغرب ومنجزه، فلم ينظر للغرب ككل لا يقبل التجزئة، وإنما دعا إلى الأخذ بمنجزاته العلمية والتكنولوجية والحياتية ونبذ تجربته السياسية والاجتماعية والقيمية.

وبتعبير آخر: إن أنصار هذا الاتجاه التفكيكي دعوا إلى نبذ كل ما يرتبط بمقولة العقل العملي وما ينبغي وما لا ينبغي فعله من منتج الغرب.

وهكذا نجد أتباع هذه الاتجاه يقررون أن الإنسان فيما يرتبط بمقولات العقل العلمي لا بد أن ينبذ فكر الغرب وهويته ومنتجه، أما فيما سوى ذلك من العلوم ومنجزات وتقنيات فلا ضير من الأخذ بها وإقامة الحياة عليها.

من الواضح لنا ونحن نستعرض هذا الاتجاه المفكك بين منتج و منتج لواعية واحدة، أنه – أيضا– من العناصر الدافعة لتأسيس علم استغراب إسلامي؛ لأنه لا يصدر عن تأسيس واضح ومنهج مؤسس، وإنما هاجس الهوية والعاطفة، فضلا عن الغيرة الدينية والأخلاقية –وهي محمودة على كل حال– تلعب دورا كبيرا في هذا التعاطي التفكيكي مع منجز الغرب مازن المطوري، مدخل إلى منهج لنقد الغرب، م. الاستغراب.

إن المناهج المتقدمة في التعاطي مع فكر الغرب، راجعة بالأساس إلى عدم وضوح العلاقة بين الأنا والآخر، بين تراثنا القديم وتراث الغرب. وعدم وضوح هذه العلاقة دافع أساس لتأسيس علم استغراب إسلامي؛ ذلك أن العلاقة الملتبسة بين التراثين، تسببت في أخطاء بالنسبة لكل منهما. فبالنسبة للتراث القديم نقوم بالأخطاء الثلاثة التالية:

ننزع أنفسنا من بيئتنا الثقافية إما إحساسا بالعار أمامها أو خجلا منها أو جهلا بها أو تقليدا للغير أو انبهارا به.

نزرع أنفسنا في بيئة ثقافية أخرى، ندخل في معاركها ونحن لسنا أطرافا فيها، وبالتالي نحول أنفسنا وكلاء حضاريين للغرب.

نهرب من الواقع ذاته فلا نرى أوضاعه ولا أزماته، ولا ندخل في تحدياته.

ونقوم بالنسبة لتراث الغرب بأخطاء ثلاثة كذلك:

إخراج الثقافة الغربية من بيئتها المحلية وظروفها التاريخية، وجعل أنفسنا أطرافا في معاركها.

إعطاء الثقافة الغربية نوعا من الاطلاق والتعميم ليس لها، ونشرها خارج حدودها، وبالتالي تحقيق مآرب المركز باعتبارها ثقافة مهيمنة وموجهة للأطراف.

محاربة الثقافات المحلية في حالة مقاومتها للثقافة الوافدة، وبالتالي إحداث الصراع بين الوافد والموروث، وشق الثقافة الوطنية، والوقوع في الازدواجية الثقافية.

ومن منطلق السعي لتجاوز هذه الأخطاء في علاقة الأنا بالآخر، يمكن القبول بهذا العلم؛ سعيا إلى فهم الآخر فهما مباشرا، من أجل التعامل معه تعاملا يعود نفعه علينا نحن مباشرة وبالدرجة الأولى، ثم يعود نفعه على المستهدف منه وبالدرجة الثانية، إذا كان لهذا الأمر درجات علي ابراهيم النملة، الاستغراب: المنهج في فهمنا الغرب. إن في محاولة تجاوز حالة اللافهم المميزة لعلاقتنا بالآخر، مسوغ منطقي لتأسيس علم الاستغراب.

ب– علم الاستغراب: قراءة في الأهداف والمهمات.

في مقارنة الاستغراب بالاستشراق يلخص حسن حنفي مهمة الاستغراب بأنه إذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور آخر، فإن الاستغراب محاولة معرفية ترمي إلى فك العقد التاريخية المزودجة بين الأنا و الآخر و الجدل بين مركب النقص عند الأنا و مركب العظمة عند الآخر. فمنذ الاسشتراق القديم الذي نشأ واكتمل في عنفوان المد الاستعماري الأوروبي لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عند الشعوب المستعمرة، أخد الغرب دور الأنا فأصبح ذاتا واعتبر اللاغرب هو الآخر فأصبح موضوعا، فالاستشراق القديم رؤية الأنا الأوروبي للآخر غير الأوروبي علاقة الذات الدارسة بالموضوع المدروس. وكان نتيجة دلك أن نشأ لذا الأنا الأوربي مركب العظمة من كونه ذاتا دارسا، كما نشأ لذا

الأخر اللاأوروبي مركب نقص من كونه موضوعا مدروسا. أما في الاستغراب فقد أصبح الأنا الأوروبي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم كما أصبح الآخر الأوروبي المدروس بالأمس هو الذات الدارس اليوم.

إن مهمة الاستغراب –بحسب حنفي– هي فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالأخر والقضاء على مركب العظمة لذا الآخر الغربي بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس، مهمته القضاء على مركب النقص في عالمنا أمام الغرب لغة و ثقافة و علما، ممذاهب ونظريات وآراء، مما يخلق فيهم إحساسا بالدونية.

وإذا كان الاستشراق قد وقع في التحيز المقصود إلى درجة سوء النية الإرادية والأهداف الغير معلنة فإن الاستغراب يعبر قدرة الأنا باعتبارها شعور محايد على رؤية الآخر ودراسته وتحويله إلى موضوع، وهو الذي طالما كان ذاتا يحول كل آخر إلى موضوع. لكن الفرق هذه المرة هو أن الاستغراب يقوم على أنا محايد لا يبغي السيطرة، وإن كان يبغي التحرر من هيمنة الغرب والخلاص من أثر ثقافته وتشوهاتها في عالمنا.

إن الاستغراب لا يهدف إلى تدمير الثقافة الغربية وإنما يهدف إلى تحليلها والتعرف على مكوناتها الأساسية ورد عناصرها إلى منبعها ودراستها بعمق، بغية خلق مناعة ومقاومة وحساسية من تشوهاتها وبعض عناصرها التدميرية، وبالتالي تحصين الهوية الحضارية لأمتنا من العناصر القاتلة في ثقافة الآخر وحماية مجتمعنا من النزاعات التدميرية في فكر الآخر وقيمه وتقاليده الجديدة. لا يريد تشويه ثقافات الآخر، وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها. فأنا الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحيادا من أنا الاستشراق.

مهمة علم الاستغراب هي إعادة الشعور اللاغربي إلى وضعه الطبيعي والقضاء على اغترابه، وإعادة ربطه بجذوره القديمة، وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص من أجل التحليل المباشر له، وأخذ موقف بالنسبة لهذه الحضارة التي يظنها الجميع مصدر كل علم.

مهمة علم الاستغراب إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل هذه الكفة الراجحة للوعي الأوربي. فطالما أن الكفتين غير متعادلتين سيظل الوعي الأوربي هو الذي يمد الثقافة الإنسانية بنتاجه الفكري والعلمي وكأنه هو النمط الوحيد للإنتاج بحسب حسن حنفي.

هذه ليست طوباوية يقع فيها علم الاستغراب، فمن الممكن تحقيق كل هذه الأهداف، والوقت حان لذلك، إذا تم الوعي بإمكانات الذات، وحسن التخطيط وعد ترك دراسة الغرب للصدفة أو العشوائية، ولا بد أن تكون هذه الأهداف مسنودة بقرارات واعية ومقصودة من قبل دول عالمنا العربي والإسلامي، وأن تكون هذه القرارات مصحوبة بإنشاء وتجهيز مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية، وأن يتم تكوين جيل جديد من المستغربين العرب والمسلمين للإسهام في دراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية. أحمد الشيخ، الاستغراب نقد للغرب. فالظروف الحالية التي يمر بها العالم العربي تحتم عليه أن يفهم بدقة هذه الحضارة الغربية التي خضع ويخضع لها في نواح عديدة من حياته، فربما يدفعه هذا الفهم الجيد نحو سلوك أفضل. أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، المثقفون العرب والغرب.

إن حسن حنفي يسوغ رؤية نظرية أولية لعلم دشنه طائفة من المفكرين المسلمين منذ الأفغاني مرورا بمحمد إقبال و مالك بن نبي و الشهيد محمد باقر الصدر و غيرهم من العلماء اللذين أنجزوا دراسات مميزة في نقد الاتجاهات الحديثة في الفكر الأوروبي. لكن حسن حنفي حاول أن يستأنف تلك الجهود للارتقاء بها إلى مصاف العلم الخاص بدراسة المعرفة الغربية ، بدءا بلحظة انبثاقها حتى مآلها راهنا .

وقد أثارت الدعوة لتأسيس علم الاستغراب بعض المثقفين فكتبوا حولها مراجعات تقويمية ، كشفت عن روح التفاؤل التي قد ترقى الى درجة الحلم في هذه الدعوة ، كما أشاروا إلى أن خطاب حنفي خطاب أيديولوجي مشبع بنزعة تعبوية لمناهضة الغرب و حضارته.

وبغض النظر عما تنطوي عليه تلك التقويمات من خطأ وصواب، تظل الحاجة إلى تأسيس "علم الاستغراب" ملحة في عالمنا الذي ما فتئ يعيد إنتاج أدوات التبعية للغرب في كل شيء لاسيما في عصر

العولمة ومطامع الإنسان الغربي في طمس ثقافة الآخر وتعميم ثقافته في العالم بأسره. ومن المعلوم أن أية محاولة لتدوين علم جديد يتطلب موهبة عقلية، ومثابرة، وتأمل معمق في الأسس المفترضة لهذا العلم، ومصدره وهيكله الأولي. كذلك ينبغي أن تصطف أقلام عديدة لتقويم تلك الفروض المقترحة و تحليل المفهومات والأفكار الأساسية، واختبار أدوات الإجرائية ... وغير ذلك. عبد الجبار الرفاعي، نحن والغرب: جدل الصراع والتعايش.

ثالثا: مداخل نظرية مؤسسة لعلم الاستغراب.

أ- علم الاستغراب: من أجل تجاوز النظرة الضيقة للآخر التي كرسها الاستشراق.

يتضح للمتأمل سوء فهم الآخر للهوية العربية والإسلامية، حين يضعها ضمن إطار ثابت، يشمل الحاضر والماضي معا، لذلك افتقد كثير من المستشرقين الموضوعية، حين وظف بعضهم دراساته لخدمة الفكر الاستعماري. فبدأ يعمل على إضعاف أهم روابط الهوية في العالم العربي والإسلامي: اللغة والدين. ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر: نماذج روائية عربية.

لهذا انتقد إدوارد سعيد افتقاد الباحث الغربي، في أثناء دراسته ثقافة الآخر، شرطين من شروط المعرفة العلمية، الأول: هو الإحساس بالمسؤولية اتجاه الثقافة أو الشعب موضوع الدراسة، والثاني: الموضوعية، فهو يتأثر بما هو غير علمي كالعواطف والعادات والتقاليد والقيم التي تربى عليها، لهذا لا يمكنه أن يقارب دراسته للشرق أو للإسلام إلا من موقع الهيمنة والإقصاء، فيسهم من دون وعي منه في تعزيز ثقافة الكراهية وينسى واجبه العلمي والأخلاقي في الحيادية.

وهنا يمكننا الادعاء بأن النزوع نحو الإقصاء والإلغاء في علاقة الغرب بالآخر –على الأرجح– تضرب بجذورها العميقة في (نزعة التمركز الغربي حول الذات) والتي سايرت الغرب وألهمته كثيرا من رؤاه، ومواقفه منذ بدأ رحلة صعوده الحضاري الكبير في العصر الحديث الذي قام علي ظاهرة المركزية الأوربية كأساس وليس كاستثناء، حيث بلغ الوجود الاستراتيجي للغرب أفق العالمية وظل متناميا بعد ذلك وصانعا للنظام

العالمي الواسع للحداثة. ومنذ هذا التاريخ لم يعد ثمة اختلاف لدى الوعي المتمركز على التمييز الوجودي بين الغرب وبقية العالم، فالحدود الجغرافية والثقافية الفاصلة بين الغرب وهوامشه غير الغربية تبلغ من حدة الإحساس بها وتصورها في ثقافة الغرب درجة أننا يمكن أن نعتبر هذه الحدود مطلقة. ويرافق سيادة هذا التمييز ما يسميه يوهانسن فابيان (نكران التعاصر) في الزمن وانقطاع جذري على صعيد الفضاء الإنساني. إذ من ناحية تنامى تدريجيا حدة النرجسية الأوربية لتشكل إيديولوجيا متكاملة ادعت عبر توليفات نظرية وتحيزات علمية تبلغ حد التزييف بسمو الغرب عرقيا ودينيا وفكريا بل بوحدته واستمراريته منذ بداية تاريخه بالمعجزة الفلسفية اليونانية وحتى الآن متمتعا بالطهر المعرفي والنقاء العرقي. ومن ناحية أخرى تنامي حدة الروح الاقصائية للغرب فلم يتوقف عند حدود إنتاج صورة نقية لذاته، بل تجاوزها إلى حدود تركيب صورة مشوهة للآخر، إذ نظر إلى العالم خارج نطاق أوربا بوصفه سديماً غامضاً، وبدائياً وخاضعاً لعلاقات اجتماعية تحتاج إلى تهشيم قبل أن يتم نشر الفضيلة والأخلاق والعقل فيه.

ويقوم خطاب (هيجل) كدليل على هذه الرؤية المشوهة للآخر، إذ يرى الأفريقيين والآسيويين أشد التصاقاً بالدونية التي تميزهم في كل شيء عن الغربيين، أما السكان الأمريكيون الجنوبيون فقد اعتبر هشاشة التكوين الطبيعي لبلادهم كافية للترفع عن الحديث عنهم. وعلى هذا النحو جرى تثبيت نظرة دونية للآخر سرعان ما أصبحت فلسفة لها بعد اجتماعي وسلوكي أدت إلى انقسام في الفكر الإنساني، فثمة عرق منح التفوق والرفعة والسمو واحتكر الحقيقة بكل أبعادها وثمة عرق آخر أختزل إلى الحضيض والدونية التي تجعله يعيش دائماً إحساسا بالمديونية الأخلاقية والثقافية والدينية للآخر وهو ما أفضى إلى مزيد من اليأس والخذلان وإفراغ الأنساق الثقافية من مضامينها والإجهاز عليها وغزوها بمضامين أنتجتها ظروف تاريخية مختلفة وهي لذلك لا تحقق نهضة هذا الآخر ولا تقدمه وإن كانت تزيد من تغريبه **واغترابه.** صلاح سالم، العرب والغرب بين نظريتي المؤامرة وصراع الحضارات.

ثمة مكون آخر للهوية الغربية بالإضافة إلى التقسيم العنصري الناتج عن المركزية الغربية، هو فكرة العدو، ويبدو أن الشرق الإسلامي هو أكثر الأعداء حضورا في وعي الغرب في الماضي والحاضر، لهذا مسخت صورته إلى مجموعة من الثوابت التي تناقض الثقافة الحديثة، مما يعلي شأن الأنا الغربية على حساب الآخر الشرقي الذي لا يملك سوى ثوب التهديد والإرهاب، فهو ضئيل المواهب قياسا للفاتح الخارجي المتحضر، الذي لم يقدم كما يرى إدوارد سعيد سوى البديلين التاليين "فلتخدم أو فلتدمر" لهذا كانت أسوأ هبات الامبريالية في نظره أنه دفعت الناس إلى الاعتقاد بنهم بيض أو سود أو غربيون أو شرقيون فقط.

وعليه فالأرضية التي يتوجب أن يتأسس عليها الاستغراب الإسلامي، ينبغي أن مختلفة عن أرضية الاستشراق الغربي النازعة نحو الهيمنة والإقصاء. ففي الوقت الراهن يتعين على خطاب الاستغراب الاسلامي إلى أن يتميز في أسسه ومنطلقاته عن الفلسفات المؤسسة للاستشراق، وإلى طرح خطاب مختلف مستوعب ومنفتح في آن على كل الأنساق الحضارية، خطاب ينطلق من قيم الذات لاستيعاب وتجاوز العلم والفكر الغربيين الموجودين في الاستشراق.

ب– مداخل نظرية مؤسسة لعلم الاستغراب الإسلامي.

هل الهدف من علم الاستغراب الإسلامي دراسة الغرب بهدف تشويه ثقافته والسخرية من عادات وتقاليد الغربيين واحتقار نظرتهم للحياة والوجود؟ هل علم الاستغراب رد فعل ضد الاستشراق؟ بتعبير آخر هل نواجه الغرب بنفس أسلوب الإقصاء والتهميش والاحتقار الذي تعامل به معنا؟. نبادر بالإجابة متبنيين قول كرم خلة: "إننا لدينا وجهة نظر إنسانية، نحن لا نملك هذا التفكير العنصري الموجود في الغرب، العنصرية، مرتبطة بالإمبريالية، مرتبطة بالنظرة من أعلى إلى أسفل...الباحث الغربي عندما يدرس مصر أو السعودية فإنه يشعر أنه أمام مجتمع بدائي، ويدرس هذا المجتمع من أعلى إلى

أسفل، وهذه النظرة العنصرية لم تمت بعد...لكننا لا ندعو إلى مجابهتها بعنصرية مضادة، بل بموقف إنساني".

كما يؤكد أحمد الشيخ أننا في المحيط العربي والإسلامي نتبنى تراثًا من القيم الأخلاقية، تبعدنا بمسافة كبيرة عن تشويه الآخرين والاعتداء عليهم أو (احتلالهم) أو الهيمنة عليهم، حتى لو كانت لدينا القدرة المادية والتقانية والإرادة لذلك، كما حدث من الغرب تجاه الشرق في الماضي القريب.

إننا في علم الاستغراب الإسلامي نستطيع حل إشكالية "الأنا" و "الآخر" حين نرتقي بإنسانية الإنسان، فنتبنى قيما حضارية أنجزتها الأمم جميعا، مما يؤسس لمد جسور التفاهم بين البشر بعيدا عن الهويات القاتلة. فالقيم الإنسانية المشتركة والتي تأتي عندنا باعتبارها؛ مجموعة القيم الأساسية التي يمكن أن توحد بين الناس من مختلف الخلفيات الثقافية والسياسية والدينية والفلسفية. حيث أن ثمة مجموعة قيم إنسانية مشتركة بين كل الفضاءات الثقافية والدينية في العالم، ينبغي استثمارها والتركيز عليها لتكريس وحدة الإنسانية ووحدة "الجوهر الإنساني". إن قيما مثل: العدل، المساواة، الحرية، التعاون، المحبة، التواضع، رفض الظلم، رفض العنف...هي جزء من إنسانية كل إنسان. ولذلك فالجوهر الإنساني حاضر في كل التقاليد الثقافية والدينية لكل الشعوب عبر التاريخ الطويل للإنسانية.

إن الاستغراب الإسلامي يستند إلى منهج معرفي، تحكمه قيم العدل والمساواة والحرية، وتحوطه أخلاقيات التعاون والمحبة والتواضع والاحترام...وهذه القيم مترتبة –جميعها– على قيمة كبرى ومتفردة هي "التوحيد". فالمنطلق الأساسي الأول المستوعب لخطاب الاستغراب الإسلامي، الأصل فيه أن ينبع من أصل عقيدي وإيماني هو "التوحيد"؛ "وهذا المنطلق كما يدل عليه مصطلحه، وتنطق به كلمة الشهادة، ويوضحه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، يقيم العقل المسلم والفكر المسلم، والمنهجية الإسلامية على فرضية الحق أساسا ومدارا ومآلا لكل الكون والكائنات.

فمما "لاشك فيه أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأن جوهر الإسلام هو التوحيد .. والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة "أن لا إله إلا الله" وهذا القول بصيغة النفي الموجز أشد الإيجاز، يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة، وقد تتكثف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد هو ما نجده في "الكلمة" أو "الشهادة" في الإسلام، فكل ما في الإسلام من تنوع وغنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة يجتمع في هذه الجملة البالغة القصر "لا إله إلا الله".

وعليه فالتوحيد بما هو إفراد لله بالوحدانية "هو سبيل هوية الأمة ومن تم توحيد موقفها الفكري في العقائد والشرائع، في الثوابت والأصول والأركان ... وتبعا لذلك وانطلاقا منه السبيل لتوحيد موقفها الفلسفي والمعرفي في خضم الصراعات والتحديات الحضارية التي أحاطت وتحيط بها، منذ ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن ... وأيضا السبيل لتوحيد موقفها العملي في معركة النهضة الحضارية التي هي طوق نجاتها من التخلف الموروث، والذي يكرسه التغريب بالمسخ والنسخ والتشويه لهويتها الإسلامية ...".

رابعا: عود على بدء:

من المهم جدا أن نؤكد أن دراسة مفهوم "الاستغراب" لا تستوعبها محاولة مثل هذه، ولكن غاية أمر هذه المحاولة أن تحدد الشكل الذي يجب أن تقوم عليه الدراسة؛ معرفيا ومنهجيا لما يثيره مفهوم الاستغراب من إشكالات جوهرية.

ومن هنا فإن التعرض المعرفي والمنهجي نراه من الجوانب التي لم تكن أساسية في الخطاب العربي والإسلامي حول الغرب، بل اتجهت توجهات الخطاب نحو المواقف مباشرة، دون الاهتمام بالجانب المعرفي والمنهجي. والنتيجة المؤسفة، بسبب أسبقية الموقف عن المنهج، ضياع المعرفة الحقة بالغرب وتفويت فرص التعايش والتواصل والتعاون بين الذات والآخر. فالعالم الإسلامي يواجه فقر على المستوى

التنظير المعرفي والمنهجي، مما جعل الموقف المتخذ من الغرب قاصرا على الانفعال تارة والتهوين أوالتهويل تارة أخرى، بدلا من أن يكون مبنيا على أسس معرفية ومنهجية.

إن معرفة الغرب تتطلب مواجهة بما تتطلبه من تحديات من جنس حركة الغرب وتصوراته نفسه، والقضية ليست في تسجيل المواقف أو تبني توجه بعينه. وإنما القضية تكمن في مدى قدرتنا على بلورة نظرية معرفة تسهم في إرساء قواعد فهم جديدة للأسس والتصورات التي يقوم عليها العقل الغربي. كما تمكن من إنشاء سياق جديد من التواصل الحضاري مع الغرب تنتفي فيه مفاهيم الغلبة والتبعية والإكراه. ومثل هذا السياق يستلزم في تقديرنا كما بينا آنفا إجراء تحويل جوهري يفضي إلى تفكيك أواصر التبعية المعرفية للغرب ومناظرته وفق مبادئ العدل والرحمة والتسامح وحب الخير...أي أن يتجاوز مسار الاستغراب الذي نتوخاه مسارات الاستتباع الفكري التي لا نزال نعيش تداعياتها السالبة على امتداد خمسة قرون خلت من ولادة الحداثة من جهة، وتجاوز مناهج المعرفة الاستشراقية النازعة نحو الهيمنة والإقصاء من جهة ثانية. لهذا فالعالم العربي والإسلامي بحاجة إلى خطاب استغراب، ينطلق من الذات بمراعاة قيم الذات، لفهم ذاتنا أولا في علاقتها بالآخر فهما يقوم على الانفتاح والتفاعل مع هذا الآخر. أملا في تجاوز حالات العداء التي تميز العلاقة بين المجتمعات المعاصرة.